

رادوبيس

۱



# رادوبيس

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية  
وجائزة نوبل العالمية للأداب ١٩٨٨

دار الشروق



## عيد النيل

لاحت فى الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس ،  
المنطوى فى أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان الكاهن الأكبر  
لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين ،  
أضناها التعب طوال الليل .

وإنه لقى تطلعه إذ عثر بصره بالشعرى اليمانية ، يتألق نورها فى  
كبد السماء ، فتهلل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد  
على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى ، وصاح بأعلى صوته أن  
قد بدت صورة الرب سوتيس فى أفق السماء ، تحمل إلى الوادى  
بشرى فيضان النيل المعبود ، وتسير بين يدي رحمته . وأيقظ صوته  
الجميل النيام . فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم فى  
السماء . . حتى قرت أعينهم على النجم المعبود ، فرددوا ترتيلة  
الكاهن ، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا ، ثم تركوا ديارهم  
مهطعين صوب شاطئ النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير  
والبركة . وردد جو مصر الهادئ صوت كاهن الرب سوتيس ،  
وأذاع البشرى إلى الجنوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس . فحزموا  
أمتعتهم ، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت

وخمونو، يولون وجوههم شطر أبو العاصمة، فنهبت العجلات  
الوادي، ومخرت السفن عباب الماء .

كانت أبو عاصمة مصر، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من  
الصوان، تؤلف بينها الكثبان الرملية، وقد غشاها النيل بطبقات  
من طميه الساحر، بثت فيها الخصب والخير العميم، وأنبت  
أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم، وكست سطحها البقول  
والخضراوات والبرسيم، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان  
تجري من تحتها الأنهار، وترعاها القطعان، يطير فى سمائها  
الحمام والطير، ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار، وتتجاوب  
فى جوها أغاريد البلابل والأطيار .

فما هى إلا أيام معدودات، حتى ضاقت أبو وجزيرتاها : بيعة  
وبيلاق، بالنازحين، فامتألت البيوت بالنازلين، وازدحمت  
الميادين بالخيام، وغصت الطرق بالغادين والرائحين، وانتشرت  
حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين، وزخرت الأسواق  
بالعارضين والبائعين، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام  
وأغصان الزيتون، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة  
بيلاق بثيابها المزركشة وسيوفها الطويلة، وهرعت جموع القانتين  
المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل، يوفون بالندى، ويقدمون  
القرابين، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين . .  
وشاع فى جو الرزين فرح راقص، وطرب حار بهيج . .

وجاء يوم العيد الموعود، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا إلى  
هدف واحد، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعونى

والهضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة ،  
وناءت الأرض بحملهم ، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض ،  
فهبطوا إلى السفن ، وأطلقوا الشرع ، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون  
أغانى النيل على أنغام المزمار والقيثار ، ويرقصون على توقيع  
الدفوف . .

ووقف الجنود صفين على جانبي الطريق العظيم شاهرى  
الرماح ، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى  
لملوك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون  
تماثيل الفراعين ، أسركرى ، وتيتى الأول ، وييبى الأول ،  
ومحتمساوف الأول ، وييبى الثانى .

وكان الجو يضح بأصوات القوم المختلفة ، فيضيع تمييزها كما  
تضيع الأمواج فى المحيط المصطخب ، ولا يبقى منها إلا دوى  
هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة ، تخرق  
الضوضاء ، وتبلغ الأذان ، يهتف بعضها قائلا : «مجدوا الرب  
سوتيس الذى بشرنا بالخير» . ويصيح صوت آخر : «مجدوا النيل  
الرب المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب» . وبين هذا  
وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمرمريوط ، وأنبذة أبو ، داعية  
إلى السرور والنسيان . .

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا ، تبدو  
على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه  
متأملا متعجبا :

- كم من فرعون اطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد هذا

اليوم العظيم! . . ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور،  
ملء الأبصار والأفتدة!

فقال آخر:

- نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم، كما سنذهب  
جميعا . . انظر إلى هذا المكان الذى أشغل . . كم من البشر سوف  
يشغله فى الأجيال المقبلة، ويجدد الآمال والأفراح التى تخفق فى  
صدورنا الآن . . ترى هل يذكرونا كما نذكرهم؟

-إننا أكثر من أن يذكرنا مذكر . . ألا ليت الموت لم يكن . .

- وهل كان يمكن أن يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت؟ إن  
الموت طبيعى كالحياة . . وما قيمة الخلود مادمنا نشبع بعد الجوع،  
ونشيخ بعد الشباب، ونسأم بعد المسرة؟

- فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس؟

- انتظر ستعلم ذلك بعد حين . .

وقال آخر باهتمام:

- هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون .

فقال له صاحبه:

- أما أنا فقد رأيت يوم التتويج العظيم منذ أشهر فى نفس  
المكان .

- انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد .

- سترى أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول .  
- ما أجمل هذا .  
- أجل . . أجل . . إن فرعون شاب جميل ، لا نظير له فى  
طوله الفارع ، وحسنه الجاهر . .  
وتساءل أحد المتحدثين قائلاً :  
- ترى ماذا يخلف حكمه؟ . . أمسلات ومعابد ، أم ذكريات  
غزو فى الشمال والجنوب؟  
- إن صدق حدسى فهى الثانية . .  
- ولمه؟  
- إنه شاب عظيم البأس .  
فهز الآخر رأسه بحذر وقال :  
- يقال إن شبابه من نوع جامع ، وإن جلالته ذو أهواء عنيفة ،  
يغرم بالحب ، ويهوى الإسراف والبذخ ، ويندفع فى سبيله كالريح  
العاصفة . .  
فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلاً :  
- وهل فى ذلك ما يدعو إلى العجب؟ . ما أكثر المصريين الذين  
يغرمون بالحب ويهوون الإسراف والبذخ . . فما بالك بفرعون .  
- صه . . صه . . أنت لا تدرى من الأمر شيئاً ، ألم تعلم بأنه  
اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش؟ إنه يريد

المال لينفقه فى تشييد القصور، وغرس البساتين، والكهنة يطالبون  
بنصيب الآلهة والمعابد كاملاً. لقد منحهم آباء الملك نفوذاً وثراءً،  
والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع.

- حقاً إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام.

- أجل . . . ولا تنس أن خنوم حتب، رئيس الوزراء والكاهن  
الأكبر، رجل حديدى الإرادة، شديد المراس . . . وهناك أيضاً  
كاهن منف، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه  
الأسرة الجلييلة.

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة، وقال:

- إذن فلندع الأرباب جميعاً أن تلهم الرجال الحكمة والأناة  
والرأى السديد.

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق:

- آمين . . آمين.

ولاحث من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل، فلكر صاحبه  
بمرفقه قائلاً:

- انظر أيها الصديق إلى النهر . . لمن ياترى هذه السفينة الجميلة  
الآتية من جزيرة بيجة، كأنها الشمس صاعدة من الأفق  
الشرقى؟ . .

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر، فرأى سفينة عجيبة، لا  
بالكبيرة ولا بالصغيرة، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو

على سطح الماء، تبدو مقصورتها على البعد متعالية، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها، ولاح في أعلى صاريها شرع متموج عظيم، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدي . . فاستولت الحيرة على الرجل، وقال:

- عسى أن تكون لموسر من أهل بيعة . .

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب، فحدجها بنظرة إنكار، وقال لهما:

- أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان .

فضحك الرجلان معا . وقال ثانيهما:

- صدقت يا سيدى المحترم، فنحن من طيبة، واثان من الآلاف التي ناداها العيد المجيد فلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان . . هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين؟

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذرا:

- طبتما نفسا أيها السيدان الكريمان، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا، ولكنها امرأة . . أجل هي سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع أهل أبو، وجزيرتها بيعة وبيلاق . .

- ومن عسى أن تكون هذه الحسنة؟

- رادوبيس . . رادوبيس الفاتنة، ملكة النفوس والأهواء جميعا .

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة، واستدرك :

- وهى تقيم هناك فى قصرها الأبيض الساحر . . هدف العشاق  
والمعجبين، حيث يستبقون إلى نيل عطفها، واستدرار رحمتها . .  
وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها، صانت الأرباب قلوبكما عن  
التلف . .

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة  
أخرى، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد . وكانت السفينة  
تدنو من الشاطئ، رويدا رويدا، والزوارق توسع لها طريقها على  
عجل، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام  
عليها معبد النيل، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها، ثم  
مقصورتها، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى  
أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج، كأنه علم الحب يظل القلوب  
والنفوس . .

ومضت فترة وجيزة، ثم رثى أربعة من النوبيين قادمين من  
الشاطئ يوسعون فى البحر المتلاطم طريقا، يسير فى أثرهم أربعة  
آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فاخرا، لا يحوزه إلا  
الأمراء والنبلاء، جلست فيه عادة حسناء، تستند فى طراءة إلى  
وسادة، وتتكى على عمرة، بساعد بض، وتمسك فى يمينها  
بمروحة من ريش النعام، تلوح فى عينيها الجميلتين نظرة ناعسة  
حاملة، تصوبها إلى الأفق البعيد فى كبرياء سامية، تقتحم الخلق  
أجمعين .

وكان الركب الصغير يسير على مهل، ترمقه العيون من كل

صوب ، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين ، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلا بجيد كالغزال ، ونثرت من فمها الوردى كلمات تاقت نفوس إلى سماعها : فتوقف العبيد عن السير ، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة إلى جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت تنتظر الموكب الفرعوني الذي لا شك جاءت لمشاهدته .

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع ، ويهبط على كتفيها في هالة من الليل كأنه تاج إلهي ، ينبلج في وسطه وجه مشرق مستدير ، عانقت فيه أشعة خدين كالورد الينع ، وفما رقيقا مفترا كأنه زهرة من الياسمين في الشمس في خاتم من القرنفل ، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه ، فما رئى وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا .

وقد فتن منظرها الناس كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ، فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت في طريقها بصوان لأذابته . ورمقتها أعين النساء شررا ومقتا ، وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم إلى فم .

- يا لها من امرأة فاتنة !

- رادوبيس . . يسمونها ربة الجزيرة !

- هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

- هو اليأس لمن يرى .
- صدقت ، فما وقعت عليها عيناي حتى قامت فى نفسى ثورة  
جامحة ، ونؤت بأعباء ظلم فادح ، وأحسست بتمرد شيطانى ،  
وصدت نفسى عما بين يدي ، وغلبنى على أمرى الخذلان والخزى  
الأبدى .
- هذا أمر محزن . . لكأنى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .
- هى شر وبيل !
- نحن أضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر .
- ألا رحمة للعاشقين . .
- ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة؟
- حقاً؟
- إن حبها فرض على علية القوم ، كأنه واجب وطنى .
- لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
- وأثته بآيات منف وطيبة أنى حاكم جزيرة بيحة .
- مرحى . . مرحى . .
- وصنع تماثيله ، ونحت جدرانته ، المثل النابغة هنفر .
- نعم ، وأهدى تحفه الثمينه القائد طاهو ، رئيس الحرس  
الفرعونى .
- إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى  
تستخلصه لنفسها؟

- سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية . .
- لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .
- من أدراك؟ . . عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .
- كلا . . إن جمالها هو القوة الجبارة . . وما حاجة القوة إلى الحب؟
- انظر إلى نظرة عينيها الرفيعة القاسية . . إنها لم تذق الحب بعد .
- وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث ، فضاقت صدرها .
- وقالت بجفاء :
- ما هى إلا راقصة . . تربت فى بؤر الفساد والمجون . ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن المساحيق ، فتبدت فى هذا المظهر الخلاب الكاذب .
- فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :
- معاذ الرب يا سيدتى ، ألم تعلمى بعد أن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثراء؟ . . وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان؟
- بخ . . بخ . . من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهى تنفق عمرها فى إغواء الرجال؟
- قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين ، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهما للحكمة ، وأدراهم بالسياسة وأذوقهم للفن .

وسأل سائل :

- كم عمرها؟

- يقولون إنها بنت ثلاثين .

- لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .

- ليكن عمرها ما تشاء ، فهذا الحسن يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدا . .

وعاد السائل يسأل باهتمام :

- ما منشؤها ، وما أصلها؟

- علم هذا عند الأرباب . . وكأني بها وجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض بجزيرة بيجة!

\* \* \*

وشقت الصفوف المتراسة بغتة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاء ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشبيين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقة من الكتان . . وصاح الذين رأوها :

- ضام . . الساحرة ضام . .

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الاطلاع

على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها الخارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكم بها . والتقت الساحرة فى طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان فى الحقيقة ثملا يترنح فى سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائميتين ، وسأله بصوتها الأجش :

- كم عمرك يا غلام؟

فأجابها ، وهو لا يعى ما يقول :

- اثنتا عشرة كأسا . .

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التى نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذى لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر وسألها بقحة :

- ماذا ينتظرنى من الحادثات يا امرأة؟

فنظرت إليه مليا ، وهى مغيظة محنقة ، ثم قالت له :

- أبشر . . ستخونك امرأتك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبتة وهى تبسم ابتسامة كريهة :

- أيتها السيدة المحروسة بالعناية! هل أقرأ لك الطالع؟  
ولم بيد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة، فصرخت  
العجوز:

- مولاتي!

وانتبهت إليها رادوبيس فيما يشبه الذعر، ثم عطفت عنها  
رأسها سريعا وقد لمسها الغضب، وقالت لها العجوز:

- صدقيني ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم  
حاجتك!

فتقدم منها أحد العبيد، وحال بينها وبين الهودج . وكاد  
الحادث على تفاهته يثير اهتمام القربيين، ولكن سمع صوت بوق  
شديد يخترق الفضاء، ووضع على أثره الجند المصطفون على  
جانبي الطريق الأبواق فى أفواههم، ونفخوا فيها نفخا طويلا  
متصلا، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه، وأنه  
عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل، فنسى  
الجميع ما كانوا فيه وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرّبة،  
وحواس مرهفة .

ومضت دقائق طويلة ثم بدأت طلائع الجيش تسير صفوفها  
مترابطة على أنغام الموسيقى الحربية تتقدمها حامية بيلاق بعددها  
المتنوعة، تسير، وراء علمها المتوج بصورة الباز، فكانت الجنود  
تقابل فى كل مكان بالهتاف والتصفيق . .

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملى الرماح والتروس،

تتأثر موسيقاها، وعلمها المزدان بصورة الرب حورس، وقد استقامت الرماح فى صورة هندسية دقيقة، فرسمت فى الهواء خطوطا متوازية طولاً وعرضاً.

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسى والسهام. واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش.

ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل، ولاحظ للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة فى صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم، يجر العجلة جوادان مطهمان، ويقوم على ظهرها فارسان، سائق مزود بالسيف والمزراق، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد، فذكر المشاهدون لمرآها غزو النوبة وطور سيناء، وخالوا أنهم يرونها تنتشر فى السهول والوديان كالنسور المنقضة، والعدو يتشتت أمامها، وقد أذهله الرعب، وأحاط به الهلاك، فاشتعل الحماس فى عروقهم ناراً، وشق هتافهم السماوات.

وبدا للناظرين الموكب الفرعونى المهيب، تتقدمه العجلة الفرعونية، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسى خماسى، تحمل الأمراء والوزراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونى على رأسه القائد طاهو.

ووقف فرعون فى عجلته منتصب القامة، مهيب الطلعة كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمناً ولا يسرة، ويصوب بصره إلى

الأفق البعيد غير ملتفت إلى الخلق جميعا، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب .

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج، ويقبض بيد على السوط الملكي، وبالأخرى على العصا المعقوفة، وقد ارتدى فوق لباسه الملكي كساء من جلد النمر احتفالا بالعيد الدينى .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة، فتعالى الهتاف، فكاد لشدته أن يفرغ الطير المحلق فى السماء . وأثار الحماس رادوييس نفسها فدبت بها حياة فجائية، وأضاء وجهها بنور بهيج، وشفقت يداها الرخصتان . .

وأفلت من بين الأصوات الهائفة صوت يصيح على عجل :  
«ليحى صاحب القداسة خنوم حتب»، فردد هتافه عشرات الأصوات، وأحدث هتافه انزعاجا وأهاج ضجة شديدة، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب! . .

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد، فتوقفت العجلات جميعا، وتقدم إلى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبى، فترجل الملك عليها. ونفخ فى الصور، فأدى الجند التحية العسكرية، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تودة وجلال، يتبعه وجوه

مملكته من الأمراء والوزراء والحكام . ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا . ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره ، وأخفى عينيه بيديه ، وقال فى صوت خافت :

- يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيد القطرين ، ابن رع ورب المشرقين .

فأعطاه فرعون العصا المعقوقة ، فقبلها الكاهن فى إجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب ، وطافوا بالمذبح ، وكان الكهنة يحرقون البخور ، فينتشر أريجهم فى جو المعبد ، وتتنفسه الرءوس المنعكسة إجلالا وقنوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى ، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت فى رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت

نفسى . وقدمت القربان زلفى إليك ، فامنن بالخير

على أرض هذا الوادى الطيب ، وأهله الآمنين .

وردت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر ، يفيض بالإيمان والتقوى ، رافعين رءوسهم إلى السماء وباسطين أيديهم فى الهواء . وردد الحاضرون جميعا الدعاء ، وسرى الصوت إلى خارج المعبد ، فسارع الناس فى ترديده ، وماهى إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته

كاهن المعبد، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى الصحنون الثلاثة المتوازية، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة، تختلج بخفقات القلوب، فيرن صداها في جو المكان القائم المهيب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد، واقترب من باب قدس الأقداس، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا، وركع ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الإلهية، وأغلق الباب، وكان المكان واسعا، شاهق السقف، شديد الظلمة، قوى الأثر، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الإله أقيدت الشموع على مناخذ من الذهب الوهاج . ونفذت هيبة المكان إلى قلب الملك الكبير، فوهنت حواسه، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس وأزاحه بيده، وأحنى ظهره الذى لا ينحن أبدا، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال . وكان لا يزال مهيبا، ولكن غابت عن وجهه آى مجد الدنيا وكبريائها، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى . . وصلى فرعون صلاة طويلة . واستغرق فى العبادة ناسياً مجده التالد وعظمته الدنيوية .

ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى، وقام واقفا وأسدل الستار الكريم، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب، حتى تنفس هواء البهو الخارجى ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء ، وساروا وراءه إلى بهو المذبح، وتبعوه إلى خارج المعبد، وخرجوا جميعا إلى حافة الهضبة المطلة

على النيل . ورآهم الأهلون المتجمعون فوق أسطح السفن ،  
فتعالّت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام والغصون .

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين يديه  
ورقة طويلة من أوراق البردى ، وتلا بصوت قوى النبرات :

«السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضه الوادى مبشرا بالحياة  
والسعادة . إنك لتسكن الغياهب أشهرا ، فإذا أصخت إلى  
توسلات عبادك ولان قلبك الكبير رحمة بهم ، خرجت من  
الظلمات إلى النور ، وانسبت فى بطن الوادى زاخرا ، فتبعث فى  
الأرض الحياة ، وسرعان ما تهتز النباتات طربا ، وتفض الصحراء  
تحت بساط سندسى ، وتزدهر البساتين ، وتغنى المغارس ،  
وتصدح الطير ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ،  
ويطمع الجائع ، ويروى الصديان ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفع  
أرض مصر بالسعادة والمجد . . تعاليت والمجد لك . . تعاليت  
والمجد لك . .» .

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار  
والناى ، وعلى توقيع الدفوف فى ألحان عذبة وأنغام شجية .

ولما أن ضاعت الأنغام فى تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير ناى  
من فرعون وأسلم إليه قرطاسا مختوما من البردى ، يشتمل على  
دعاء النيل المعبود ، فأخذه الملك ورفعاه إلى جبينه ، ثم تركه  
يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى صخب صوب  
الشمال . .

وهبط فرعون أدراج الهضبة، وركب عجلته، ورجع الموكب  
كما أتى تحف به العظمة ويحوطه المجد، وتهتف له قلوب  
الملايين من الرعايا المخلصين، وقد أهاجهم الحماس، وأسكرتهم  
نشوة الطرب.

## الصندل

عاد الموكب الملكى إلى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، إلى أن خلا إلى نفسه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللائى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شديد الغضب ، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها ، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق ، فيظنه إنذارا جريئا موجهها إلى رغباته ، فيشتد بها الغضب وينذر بالويل والثبور . .

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبورا ، فهرع كالريح الهوج إلى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتو قريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين أى السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن

مسرعات لا يلوين على شىء . . . ولبثت الملكة جالسة هنيهة ،  
ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت فى جلال ، ودنت منه ، ثم شبت  
على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت :

- أغاضب أيضا يا مولاي؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة  
فى دمائه ، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة :

- كما ترين يا نيتو قريس!

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن  
واجبها الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه ، فقالت  
بهدوء وهى تبسم إليه :

- الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال :

- أتوصيننى بالحلم أيتها الملكة؟ إنه لثوب زائف يتقنع به  
الضعفاء .

فقالت الملكة فى تألم ظاهر :

- مولاي . . لماذا تضيق بالفضائل ذرعا؟

- أحقًا أنا فرعون؟ . . وهل حقًا أتمتع بشبابى وقوتى؟ . .  
فكيف إذا أريد ، ولا أستطيع نيل ما أريد؟ . . كيف تنظر عيناي  
إلى أراضى مملكتى فيتصدى لى عبد ويقول : لن يكون هذا لك؟

فوضعت يدها على ذراعه ، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان ،  
ولكنه تخلص منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا . غاضبا  
ساخطا ، فقالت بلهجة تنم عن الأسف العميق :

- لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو . . واذكر دائما أن  
الكهنة رعاياك المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل  
عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يا  
مولاي أن تستردها ، فمن الطبيعي أن يقلقوا . .

قال الملك الشاب بحدة :

- أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ،  
ولا يقف في سبيل رغباتي إلا أن نصف أراضى المملكة فى أيدي  
أولئك الكهنة . . أيجوز أن تعذبني رغباتي كالفقراء؟ ألا سحقا  
لهذه الحكمة الفارغة ، أو تعلمين ماذا حدث اليوم؟ . . لقد هتف  
نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب . .  
أرأيت أيتها الملكة؟ . . إنهم يتحدثون فرعون عينا لعين!

فاستولت الدهشة على الملكة ، واصفراً وجهها الوديع ، وتمتمت  
بكلمات غير مسموعة ، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة :

- ماذا دهاك أيتها الملكة؟

أحست بلا شك بانزعاج واستياء ، ولولا أن الملك غاضب إلى  
حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها تسلطت على  
انفعالاتها بإرادة من حديد ، وقالت بهدوء :

- دع هذا الحديث إلى وقت آخر ، فإنك على وشك استقبال

رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب ، وينبغى أن تقابلهم  
المقابلة الرسمية الكاملة . .

فنظر فرعون إليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :

-إنى أعرف ما أريد ، وما ينبغى أن أفعل .

وفى الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته فى البهو  
الرسمى العظيم ، واستمع إلى خطب الكهنة ، وآراء حكام  
الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك «لم يكن راضيا» ، وحين تفرق  
الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير  
يسير ، وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجروا أحد على  
التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرءوا  
صفحة وجهه ، لعلهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا  
كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو  
رئيس الحراس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة  
الحديقة ، ودار فى الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر  
ارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالتأمر منذ حين  
قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به  
الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم  
اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجليه فى انتظاره :  
سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، ورأسه الأشيب ، وطاهو  
بجسمه القوى الفولاذى الذى تربى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التي يشير باتباعها نحو الكهنة، وكانا سمعا الهتاف الجريء الذى عد فى جميع الدوائر تحديا لسلطة فرعون، وكانا يتوقعان له رجعا شديدا فى نفس الملك الشاب، وعلمنا بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريعات، فحقق قلباهما، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك؛ لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر، وبمعالجة مشكلة الأراضى بمنتهى الاعتدال، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا . .

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما، يرجوان، ويكابدان قلقا أليما، ولكن فرعون كتم عواطفه، وطالعهما بوجه كأبى الهول. وكان يعلم بما تضطرم به نفساهما، وكأنه رغب فى أن يمد لهما حبل الوسائس، فجلس على أريكة فى هدوء، وأمرهما بالجلوس، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجذ والاهتمام، فقال:

– يحق لى اليوم أن أغضب وأن أتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى، ورن فى أذنيهما الهتاف الجريء مرة أخرى. فرفع سوفخاتب يديه تألما وإشفاقا، وقال بصوت متهدج:

– تعالى مولاي عن دواعى الألم والغضب!

وقال طاهو بقوة:

- لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا ينثلم، ورجال يفتدونه بالأرواح، حقاً أن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم، يتنكبون سبيل الرشاد، ويركبون رءوسهم، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها . .

فأحنى الملك رأسه ناظراً إلى ما تحت قدميه، وقال :

- إنى أتساءل هل قوبل أحد من آبائي وأجدادى طوال عهد حكمة بمثل ما قوبلت به اليوم من هتاف، ومامضى على جلوسى سوى بضعة أشهر؟

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف مخيف، وقال بيقين :

- القوة يا مولاي . . القوة يا مولاي . . كان أجدادك المقدسون أقوياء، يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال، وسيف كالقضاء، كن مثلهم يا مولاي، لا تتردد ولا تركز إلى الحلم، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة، تذهل الجبار عن نفسه، وتخنق فى صدره أوهى الأمل .

ولم يرق هذا الكلام فى عينى الشيخ الحكيم سوفخاتب، وذعر من حماس قائله، وأشفق من عواقبه، فقال :

- مولاي . . إن الكهنة منبثون فى أقطار المملكة كالدّم فى الجسم، منهم: الولاة والقضاة والكتّاب والمربون، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعونى وحامية بيلاق، فالضربة القاسية قد تأتى بعواقب غير محمودة . .

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة، فقال :

- وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم؟ . . أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا، ونرد في عينيه إلى الهوان؟

- ليس الكهنة بأعداء لفرعون، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو، فالكهنة طائفة مخلصه أمينة . وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال، وأقسم أنى ما يئست يوما من إيجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاي، ويحفظ للكهنة حقوقهم .

وكان الملك يستمع إليهما فى هدوء، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة، فلما أتم سوفخاتب كلامه، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين :

- أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان، فقد أطلقت سهمى .

واستولت الدهشة على الرجلين، ونظرا إلى الملك فى إشفاق وأمل وخوف . وكان طاهو أدنى إلى الأمل، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعض على شفتيه، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة . وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفى :

- تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعاً، ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلًا : إن الهتاف باسمه تحت سمعى وبصرى عمل حقير خئون . وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين، فرأيته يضطرب ويبهت، ويحنى رأسه الكبير

على صدره الضيق ، وفتح فمه ليتكلم ، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد .

وقطب الملك جبينه ، وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلاً بعنف :

- ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدي ، وصارحته بكلام صارم ، مؤكداً له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذلك الهتاف يردني عن رأى اعتزمته ، ثم أخبرته بأن نيتي انتهت إلى ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج ، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والندور . .

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك ، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون ، منكفئ الوجه ، يعانى مرارة الخيبة ؛ وأما طاهو فكان متهللاً فرحاً ، كأنه يستمع إلى لحن جميل ، يتغنى بمجده وعظمته ، واستدرك الملك قائلاً :

- لا شك فى أن قرارى أذهل خنوم حتب ، وأخرجته عن طوره ، فبدا عليه الجزع ، توسل إلى قائلاً : إن أراضى المعابد هى أراضى الأرباب ، وإن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب والفقراء ، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية ، وحاول أن يفيض ، ولكنى أوقفته بإشارة من يدي ، وقلت له : إن هذه هى إرادتى ، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء ، وأذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحاً :

- باركتك الأرباب جميعاً يامولاي !

فابتسم الملك ارتياحاً ، ولاحظ منه نظرة إلى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال :

- أنت رجل مخلص يا سوفخاتب، ومشير نصوح . . فلا  
يحزنك أن خولف رأيك .

فقال الرجل :

- لست يامولاى من قوم مغرورين ، يغضبون أشد الغضب إذا  
خولفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا عن  
كرامتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان  
أنذره ، ليعرف من لا يعرف قدره . . أعوذ بالرب من شر  
الغرور ، فما يدفعنى إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما  
يحزننى حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسى ، وما  
أتمنى على الرب من شىء إلا أن يكذب رأىى ، ليطمئن قلبى . .

وكان فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

- لقد نلت بغيتى ، ولن ينالوا شيئا منى ، فمصر تعبد فرعون ،  
ولا ترضى عنه بدلا . .

فأمن الرجلان على قول مولاهما بإخلاص ، ولكن كان  
سوفخاتب مضطربا ، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذى  
أصدره فرعون ، ويذكر فى ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر  
الشديد وهم مجتمعون فى أبو ، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأى ،  
وثبات الشكوى ، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم  
على التذمر والحزن ، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو  
نفوذهم على القلوب والعقول . . ولكنه لم يبن عن آرائه ، لأنه  
وجد الملك فرحاضيا ضاحك الثغر ، فأشفق من تعكير صفوه ،

وبسط صفحة وجهه ، ورسم على شفثيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

- لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذى انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوبى النوبة فى حياة أبى ، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .

وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبية ،  
وصببن الخمر ، وقدمن كئوسا مترعات إلى الملك والرجلين  
المخلصين ، فشربوا فى صفاء وهناء ، وعلّوا فى نشوة ، وجعل  
سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز حواسه فى رحيق  
مريوط ، ويشارك الملك والقائد سعادتتهما ، وكانوا جلوسا صامتين  
تبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها  
الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم ترقص  
أغصانها على شدو الأغاريد ، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها  
انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس . . واستسلموا إلى  
يقظة ناعسة زمنة غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم  
من أحلامهم بعنف ، إذ سقط شىء فى حجر الملك من عل ،  
فانتفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط الشىء عند قدميه ، وإذا به  
صندل ذهبى ، ونظروا إلى أعلى دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق  
فى سماء الحديدية فوق رؤوسهم ويبعث فى الفضاء صرصرة  
مخيفة ، ويصليهم نظرات ملتهبة من عينين متقدتين ، ثم ضرب  
بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة . .

وعادوا بالنظر إلى الصندل ، والتقطه الملك بيده ، وجلس

يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتياح .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلاً :

- هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أئمنه !

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

- ترى هل خطفه النسر؟

فابتسم الملك قائلاً :

- لا يوجد فى حديقتى شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا .

وقال سوفخاتب :

- يعتقد العامة يا مولاي أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه يخطف من العذارى من تهوى إليها نفسه ، ويطير بها إلى قمم الجبال ، فلعل هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبتة ، ثم خانة الحظ فأقلت من بين مخالبه ، وسقط عند قدمى مولاي .

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعا ، ويقول :

- ترى كيف خطفه؟ . . أخشى أن يكون لإحدى ساكنات

السماء . . فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

- أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي ، خلعتة مع ثيابها على

شاطئ بركة ، وتعرت تستحم ، فجاء النسر وخطفه .

- ورمى به إلى حجرى . . ياللعجب ، لكأنى به يعلم بحبى  
للحسان! . .

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :

- أسعدت الآلهة أيامك يا مولاي .

وتبدت الأحلام فى عيني الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان  
جبينه ، وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه ،  
ويسائل نفسه : ترى من صاحبه؟ وما صورتها؟ وهل هى جميلة  
كصندلها؟ وكيف لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك؟ وما  
شأن الأقدار التى نصبتة هدفا له؟ . وعثر بصره بصورة منقوشة  
على باطنه ، فقال وهو يشير إليها :

- ما أجمل هذه الصورة . . إنه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية  
على يده المبسوطة .

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد  
فالتمعت أعينهما بنور خاطف ، وتطلعا إلى الصندل باهتمام  
عظيم ، وقال سوفخاتب :

- هل يتنازل مولاي عن الصندل لحظة؟

فأعطاهاه ، ونظر إليه كبير الحجاب ، كما نظر إليه طاهو ، ثم  
رده الرجل إلى الملك وهو يقول :

- صدق حدسى يامولاي . . هذا صندل رادوبيس غانية بيجة  
الشهيرة .

فتساءل الملك قائلاً :

- رادوبيس . . يا له من اسم جميل . . من عسى أن تكون صاحبه؟!

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

- هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعا .

فابتسم فرعون وقال :

- ألسنا من أهل الجنوب؟ حقًا إن الملوك قد تخترق أعينها سجف الأفق القصي ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .

واشدد القلق بطاهو ، فقال وقد امتقع لونه :

- إنها امرأة يا مولاي قد طرق بابها رجال أبو وبيجة وبيلاق .

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة :

- على أى حال هي صورة أنثوية يا مولاي ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :

- وحق الرب سوتيس إنكما لأخبر أهل الجنوب بها .

فقال سوفخاتب بهدوء :

- إن بهو استقبالها يا مولاي ملتقى أهل الرأى والفن والسياسة .

- حقًا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ، هل هي أجمل من رأيت؟

فقال سوفخاتب باطمئنان :

- هي الجمال عينه يا مولاي، هي فتنة قهارة، وعاطفة لا تقاوم. لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال يوماً إنه من أخطر الأمور في حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس .

وتنهذ طاهو يائسا، وحدث كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها، ثم قال :

- إن جمالها يا مولاي جمال شيطاني رخيص، لا تضمن به على طالب!

فضحك الملك بصوت عال، وقال :

- كلا كما يغريني وصفه .

فقال سوفخاتب :

- ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يا مولاي .  
ونزع خيال الملك به إلى النسر، فتولاه عجب ساحر، أضفى عليه ما سمعه نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام . فتساءل وكأنه يحدث نفسه :

- ترى أحسن النسر في اختيارنا هدفا له أم أساء؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه، وقال في حيرة :

- ما هي إلا مصادفة يا مولاي . وما يؤسفني إلا أن أرى هذا الصندل الملوث بين يدي مولاي المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :

- مصادفة؟ . . إن هذه الكلمة يا مولاي مهضومة الحق ، يظن بها التخبط والعمى ، ومع هذا فهي المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ، فلم يبق للآلهة إلا القليل النادر من حوادث المنطق ، كلا يا مولاي ، إن كل حادثة في هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات - جلّت أو تفهت - عبثاً أو لهوا .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنوني كاد أن يجرف هدوءه في حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم عن اللوم والتعنيف :

- أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاي ، في هذه الساعة الجلييلة ، بأمثال هذه الأوهام؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

- إن الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر في أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفو لهوه بأموور جده . فمن أدراك أيها القائد؟! فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندل على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً :

- أدينا على اختلاف أيها الرجلان ، كما تشاءان . ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغريا بالهوى ، وفي سوفخاتب الشيخ زاجرا عنه ، وعلى أى حال لا مندوحة لى من الميل مع رأى سوفخاتب فى الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو فى السياسة .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجلان ، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهى تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربى ، وقال وهو يهم بالمسير :

- أمامنا ليلة عمل شاقة . فى الغد ، وسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل فى يده ، فانحنى الرجلان فى إجلال .

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوقف كل منهما بإزاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل و صدره العريض وعضلاته الفولاذية ، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج فى صدر صاحبه ، فيبتسم سوفخاتب ، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم ، فقال :

- غدرت بى أيها الصديق سوفخاتب ، بعد أن لم تطق منازلتى وجها لوجه . .

فرغ سوفخاتب حاجبيه إنكارا ، وقال :

- ياله من كلام بعيد عن الحق أيها القائد! ما لى أنا والحب؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أون؟

- ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم. . ألم ميل قلبك الفتى يوما إلى رادوييس؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفًا لم تظفر به أنت؟

فرغ الشيخ يديه يستعيد من كلام القائد، وقال:

- إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن، والحق أنه إذا كان قلبى مال إلى هذه الغانية يوما، فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع!

- أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها إكرامًا لى؟ فبدت الدهشة على سوفخاتب، وقال باهتمام وأسف صادق:  
- أحقًا أنك تجد فى الأمر جدًّا؟ . . أم أنك ضقت بدعابتى ذرعًا؟

فقال طاهو بسرعة:

- لا هذا ولا ذاك أيها المعظم، ولكن يسوءنى فقط أن نختلف دائما.

فابتسم كبير الحجاب، وقال بهدوئه الطبيعى:

- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش!

## قصر بيعة

غاب الموكب الفرعونى من الأنظار، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة، فاندفع الناس من جانبى الطريق، فتلاطمت أمواجهم، واختلطت أنفاسهم، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا، وانقض على أعدائه كاسرا. فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة إلى السفينة. وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون لا تزال تلتهب فى قلبها نارا وتندفع إلى أطرافها دما حارا. وكانت صورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض، ونظراته المتعالية، وقده الرشيق، وعضلاته المفتولة.

وكانت رآته قبل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شهر قلائل، وكان يقف فى عجلته كما وقف اليوم فارح الطول جاهر الجمال، مرسلا بناظريه إلى الأفق البعيد، وقد تمت يوم ذاك كما تمت اليوم لو عطف إليها عينيه.

ترى لماذا؟.. لأنها تطمع فى أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن رآته

فى قداسة الأرباب المعبودة؟ كيف السبيل إلى فهم هذا التمنى؟ . .  
على أنه مهما كانت حقيقته ، فقد تمت صادقة ، وتمت مخلصمة  
مشوقة .

لبث الغانية مستغرقة فى غمرات أحلامها ، فلم تعن بالالتفات  
إلى الطريق المزدحم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس ، ولم  
تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها ،  
بنهم وشراهة . وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج فى  
المقصورة ، واطمأنت إلى عرشها الصغير ، وهى فى شبه غيبوبة  
تسمع ولا تعى ، وتنظر ولا ترى . . وانسابت بها تشق وجه النيل  
الرزين ، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض ، عروس  
جزيرة بيحة . وكان القصر يرى عن بعد فى نهاية الحديقة اليانعة  
التي تنتهى معارجها إلى سيف النيل ، تحوط به أشجار الحمير ،  
ويحنو عليه النخيل ، كأنه زهرة بيضاء نبتت فى أحضان تلك الجنة  
الوارفة . فهبطت أدراج السفينة ، ووضعت قدميها على أولى  
درجات الحديقة ، وصعدت سلما من المرمر المصقول ، يمتد بين  
سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلاق عالية نقشت  
عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ، إلى أن بلغت أرض الحديقة  
السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيري نقش اسمها على واجهتها  
باللغة المقدسة ، وقام فى وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعى ، نحته  
هنفر ، وأبنى فيه دهرا جميلا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة  
على عرشها الجميل الذى تستقبل عليه المقربين ، ويكشف فى  
٤٣

روعة فنية رائعة عن جمال الوجه ، وتكعب الشدين ، ورشاقة القدمين . ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها ، فظلت عليه سقفا من الأزهار والأوراق الخضراء ، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب ، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة ، تنتهى ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبي ، وذات الشمال إلى سورها الشمالي . وكان هذا الممر ينتهى إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراس من عمد رخامية ، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز ، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال ، وانتشرت فى جنباتها المترامية التماثيل والمسلات .

وانتهت بها قدماها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الإوز والبط وتغنى فى جوها الأطيوار ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل .

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة ، فصارت أمام الحجر الصيفية ، ووجدت فى استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها إجلالا ، ثم وقفن ينتظرن أوامرهما ، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلمة تستريح . . ولم يطل بها المقام فانتفضت واقفة ، وقالت لجواريتها :

- كم ضايقتنى أنفاس القوم الحارة . . وكم أرهقنى الحر . .  
اخلعن ثيابى ، فقد تفت إلى مياه البركة الباردة .

فدنت الجارية الأولى من سيدتها، ورفعت بخفة خمارها  
الموشى بالذهب نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية، فكشفتا عن قميص  
شفاف انحسر عما فوق النهدين وما تحت الركبتين، ثم تبعتهما  
جارتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد، وروعتا الدنيا  
بجسد طليق، خلقتة الآلهة جميعا، وادعاه كل لقدرته وفنه!

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم، فانساب  
على جسدها، وغشاه من الجيد إلى الرسغين، وانحنت على  
قدميها وخلعت صندلها الذهبي ووضعته على حافة البركة .  
ومشت الغانية تتهادى، وهبطت درجات البركة المرمرية على  
مهمل، ومضى الماء يغمر القدمين، فالساقين، فالفخذين، ثم ألقى  
بجسمها في الماء الهادئ يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما .  
واستسلمت لمداعبة الماء في رخاوة، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى  
والمرح، وسبحت طويلا تارة على بطنها، وتارة على ظهرها،  
وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعير شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع  
يرسله جواربيها، فتوقفت عن السباحة، والتفتت إليهن، فراعها  
أن رأته نسرا هائلا يحلق من علو قريب من شاطئ البركة، ويرف  
بجناحيه، ففرت من بين شفثيها صرخة فزع، وغاصت في الماء  
تتنفض فزعا ورعبا، وتصبرت بجهد جهيد، وحبست أنفاسها  
طويلا حتى أحست بالاختناق، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها في  
خوف وحذر، ونظرت فيما حولها وهي تخشى، فلم تر شيئا .

فنظرت إلى السماء فوجدت النسرين يوليان بعيداً يوشك أن يلج باب الأفق، فسبحت إلى الشاطئ على عجل، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة، ووضعت قدمها في إحدى زوجي صندلها، ولكنها لم تجد الأخرى، وبحثت عنها طويلاً ثم سألت:

- أين الأخرى؟

فأجابها الجوارى في قلق:

- خطفها النسرين!

وتبدى الأسف على وجهها، ولكنها لم تجد متسعاً من الوقت لإعلان سخطها، فدلقت إلى الحجرة الصيفية، والجوارى من حولها وبين يديها يجفون جسدها الغض، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتشر على أديم عاج.

\* \* \*

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف، وما أكثرهم في أيام العيد التي تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب، فارتدت أجمل ثيابها، وأزينت بأفخر حليها، ثم تركت المرأة إلى بهو الاستقبال، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم.

وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة، بناه المعمار هنى، وجعل صورته على هيئة بيضاوية، وشيد جدرانها من الجرانيت كبيوت الأرباب، وكساه بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر الناظرين، وكان سقفه مقبباً تزيينه الصور والتهاويل، وتدل من المصاييح المكففة بالذهب والفضة.

وزخرف الجدران المثل هنفر، وتنافس العشاق فى تأثيثه بإهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة، والرياش الجميلة. وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعا، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل، وقاعدته من الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت، وقد أهدها إياها حاكم جزيرة بيجة.

ولم يطل انتظار الغانية، فدخل عبد من عبيدها، وأعلن قدوم السيد عانن تاجر سن الفيل. ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه الفضفاضة، ويزهو بشعره المستعار، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب، وضعه على كذب من كرسى الغانية، ورجع من حيث أتى. وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها، فابتسمت له، وقالت بصوتها الحلو:

- أهلا بك أيها السيد عانن. كيف حالك؟ أهكذا لا نراك إلا كل دهر طويل!

فضحك الرجل سعيدا مسرورا، وقال:

- ماذا أصنع يا مولاتى!.. هى حياتى التى اخترتها أو التى فرضتها الأقدار علىّ، أن أكون أخوا سفر، جواب أرض، تتقاذفنى البلدان، فأقضى نصف عامى فى بلاد النوبة، ونصفه الثانى ما بين الجنوب والشمال، أشتري وأبيع، وأبيع وأشتري، لا أعرف لحياتى مستقرا!!

فنظرت إلى الصندوق العاجى وهى لاتزال تبتسم وسألته:

- وما هذا الصندوق الجميل؟ إخال أنه هدية من هداياك النفيسة!

- ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه . . هو سن فيل  
مفترس ، أقسم التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه  
أربعة من رجاله الأشداء ، فحفظته فى مكان أمين ، ولم أعرضه  
على الطالبين . ولما ألقى عصا الترحال فى تنيس ، دفعت به  
إلى أيدي صانعيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب ،  
وظلوه من الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك . .  
وقلت لنفسى : أحرى بتلك الكأس التى كلفت نفوسا غالية ، أن  
تهدى إلى من تبذل فى سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهى  
راضية .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة ، وقالت :

- شكرا لك أيها السيد عانن . . إن هديتك على نفاستها لا  
تعديل بجمال حديثك !

فطرب أيما طرب ، ورنا إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسل ،  
وقال بصوت خافت :

- ما أجملك . . ما أفتنك . . كلما عدت من سفر طويل أجلك  
أجمل وأفتن مما تركتك ، وكأنى بالزمان ولا عمل له إلا السمو  
بحسبك الفاتن .

وكانت تصغى إلى إطراء حسنها ، كمن يصغى إلى نغمة  
معادة ، فطاب لها أن تتهكم به فسألته :

- كيف حال أبنائك؟!

فأحس بشيء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على

الصندوق ورفع غطاءه، فبدا الكأس نائما على جانبه، ثم قال وهو يرفع رأسه إليها:

- ما ألدع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك؟!!

فلم تجبه، ولاتزال تبتسم، ثم دعتة للجلوس فجلس قريبا منها. واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين، منهم من يتردد على قصرها كل مساء، ومنهم من لا تراه إلا فى الأعياد والمناسبات، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة، ثم رأت المثل هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيق، وحنجرته الناتئة، وشعره المفلفل، وأنفه الأفضس، وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم. فأعطته يدها، ولثمها الرجل فى حب عميق. وقالت تداعبه:

- أيها الفنان الكسول.

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال:

- لقد انتهيت من عملى فى زمن قصير.

- والحجرة الصيفية؟

- هى الباقية بلا زخرف، وإنه ليؤسفنى أن أقول لك بأنى لن أزخرفها بنفسى.

فبدا التساؤل على وجه رادوبيس، فقال الرجل:

- سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة، لأن أمى مريضة، وقد بعثت إلى رسولا يبلغنى رغبتها فى رؤيتى، فلم أربدا من السفر.  
- خففت الأرباب عنها وعنك.

فشكرها هنفر وقال:

- لا تظنى أنى نسيت الحجره الصيفيه، فى الغد يأتىك أنىغ تلاميذى بنامون بن بسار، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه، إنى أثق به ثقتى بنفسى، ولعلك ترحبين به وتشجعينه.  
فشكرته على عنايته بها، ووعدته خيرا.

واطرده تيار القادمين، فجاء المعمارهنى، وقفاه أنى حاكم الجزيره، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب. وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف، الذى كان فى يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر. وقد عاد أخيرا إلى أبو مسقط رأسه، بعد أن نيف على السبعين من عمره، وكانت رادوبيس لاتفتأ تداعبه، فقالت له وهى تستقبله:

- مالى إذا رأيتك أشتهى أن أقبلك؟

فقال الرجل بهدوء:

- لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمه.

\* \* \*

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا، وباقات من أزهار اللوتس، فدهن رءوس الحاضرين

وأيديهم وصدورهم بالطيب ، وأهدين إلى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوبيس بصوت عال :

- ألم تعلموا بما حدث لى اليوم؟

فتطلع إليها الجميع بانتباه ، وساد الصمت ، فقالت باسمه :

- نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة ، فهبط نسر بعتة وخطف فردة صندلى الذهبى ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه ، وقال الشاعر رامون حتب :

- إن رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة .

وقال عانن بحماس :

- أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل .

فقالت رادوبيس أسفة :

- كم كان عزيزا لى .

فقال هنفر المثل :

- من المحزن حقاً أن يضيع شىء تمتع بلمسك أياما وأسابيع ، وما مصيره فى النهاية إلا السقوط ، وقد يسقط فى حقل ناء فتطؤه قدم ريفية بسيطة !

فقال رادوبيس بحزن :

- مهما يكن مصيره ، فلن يعود إلى . .

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه ، فقال يعزيها :

- على أي حال إن خطف النسر لصندلك فأل حسن ، فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

- وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه من عشاقها؟

فرد عليه الفيلسوف قائلاً ، وهو يحدجه بنظرة ساخرة :

- ينقصها أن تتخلص من بعضهم!

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكئوس الشراب الذهبية ، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفئ الظمأ في الفم ، وتوقد النار في القلوب . وقامت رادوبيس على مهل ، وسارت إلى الصندوق العاجي ، ورفعت الكأس العجيبة ، ومدت بها يديها إلى الساقية وهي تقول :

- لنشرب نخب السيد عانن لهديته الجميلة ، وعودته السالمة .

فشربوا جميعاً هنيئاً ، وشرب عانن كأسه حتى الثمالة ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت إلى صاحب له وقال :

- أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمى على لسان رادوييس؟

فأمن الرجل على قوله، وتنبه عند ذاك الحاكم أنى إلى وجود السيد عانن، وكان يعرفه، ويعلم بأنه كان فى رحلة فى الجنوب، فقال له:

- عود سعيد يا عانن، كيف كانت سفرتك هذه المرة؟  
فأحنى الرجل رأسه احتراماً، وقال:

- حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل، لم أتوغل هذه المرة فيما وراء إقليم الواوايو، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب.

- وكيف حال صاحب السمو كارفرو حاكم الجنوب؟

- الحق أن سموه يلقى متاعب جمّة بسبب تمرد قبائل المعصايو، فهم يضمرون الكراهية للمصريين، ويتربصون لهم، فإذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة، وقتلوا رجالها، ونهبوا تجارتها، ولاذوا بالفرار أن تبلغهم القوات المصرية.

فبدا الاستياء على وجه الحاكم، وسأل التاجر باهتمام:

- ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية؟

- إن سموه لا ينفك يرسل قواته فى أعقابهم، ولكنهم لا يواجهون القوات الحربية، ويفرون فى الصحارى والغابات. فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاذ المؤن. ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل.

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن ، وكانت له  
خبرة ببلاد النوبة ، وكان على علم واف بقضية المعصايو ، فسأل  
التاجر قائلاً :

- لماذا يصير المعصايو دائماً على العصيان! . . إن البلاد المشمولة  
بحكم مصر تتمتع فى ظلّه بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن لا نتعرض  
لعقائد غيرنا ، فلماذا يناصروننا العداوة؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة  
هى التى تغرى القوم بالانقضاض عليها ، ولكن الحاكم أنى كان  
متبحراً فى هذه المسائل ، فقال للفيلسوف :

- الحق يا سيدى الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب  
سياسية أو دينية . وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون  
فى أرض جدباء ، ويهددهم الجوع فى كل حين ، وبين أيديهم  
كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من جوع . فإذا انبرى  
المصريون لاستثمارها ، هاجموهم ونهبوا قوافلهم .

فقال هوف :

- إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ،  
وإنى أذكر يا سيدى الحاكم أن الوزير أونا - تقدست روحه فى عالم  
أوزوريس - منى نفسه يوماً بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة  
المتبادلة ، فيمدهم بالغذاء فى مقابل أن يؤمنوا له طرق القوافل . .  
هى فكرة ثابتة أليس كذلك؟

فهذا الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

- لقد أحيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا،  
وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل  
زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون . .

وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا  
حلقات ، ومنهم عانن ، وشتتهم شجون الحديث ، وحاولت كل  
حلقة أن تجذب رادوييس إليها ، ولكن الغانية جذبها اسم خنوم  
حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء سير الركب  
الفرعونى ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحست بلفحة  
غضب ، فدلقت إلى حيث يجلس أنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ،  
ورامون حتب ، وقالت بصوت خافت :

- ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب؟

وكان زوار القصر الأبيض إخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا  
يعقل ألسنتهم خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حربة  
مطلقة ، وطمأنينة كاملة . وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة  
الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدي شكوكه ومخاوفه من  
تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع الدنيا .  
وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى وجه  
رادوييس الجميل :

- إنه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .

فقال هنفر :

- نعم ولا شك فى أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشباب فى  
أول عهده بالحكم .

وقال هوف بهدوء :

- لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته،  
فى حضرة فرعون!

فقال رادوييس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

- ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة . . لماذا أقدموا على  
ذلك أيها السيد أنى؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين، وقال :

- أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات . . فكثير  
من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك  
المعابد إلى أملاك التاج، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها  
آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف :

- كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة، يقطعونهم  
الأراضى، ويهبونهم الأموال، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى  
المنزرعة، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم، وبسط على الرقاب،  
ولاشك فى أن هناك وجوها من المنافع أحق بالمال من المعابد .

فقال هوف :

- يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال  
الإحسان والبر، ويصرحون دائما بأنهم يتنازلون عن أملاكهم عن  
طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

- وما هذه الضرورة؟

- أن تشتبك المملكة فى حرب مثلاً تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلاً ، ثم قالت :

- لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم أنى :

- لقد تورطوا فى خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم ييثون دعائهم فى الأقاليم ، ويدخلون فى روع الفلاحين أنهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة . .

فتساءلت رادوبيس دهشة :

- كيف تواتيهم شجاعتهم؟!!

فقال أنى :

- البلاد فى سلام ، والحرس الفرعونى هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تواتيهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية!

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق :

- يا لهم من أوغاد!

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأياً

فقال :

- إذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وأدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحد، وكان مغرماً بإثارة  
الزوابع، وسأله فى اقتضاب :

- وخنوم حتب؟!!

فهز هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

- هو كاهن كما ينبغى، وسياسى نافع، وليس من ينكر عليه  
قوة الإرادة، ونفاذ البصيرة.

وتلملم الحاكم أنى . وهز رأسه بشىء من العنف، وقال :

- لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش!

فقال رادوييس بحدة :

- بل أعلن غير ذلك!

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

- أنا أعرف خنوم حتب جيداً، وهو بلا شك مخلص لمولاه  
ولوطنه .

فقال أنى بغرابة :

- لم يبق إلا أن تصرخ بأن فرعون مخطئ.

- كلا . . إن فرعون شاب سامى الآمال، يرغب فى أن يكسو  
بلادته حلة من البهاء، ولن يأتى ذلك إلا بالاستعانة بجانب من  
موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب فى حيرة شديدة :

- فمن المخطيء إذن؟!

فقال هوف :

- عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق!

ولكن رادوييس لم تترح إلى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض عن الموازنة التي يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان . وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهى أن فرعون سيد البلاد دون منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ولأى سبب ، ونفر قلبها من كل رأى يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأيها لأصحابها ، وختمت كلامها بقولها :

- إنى أعجب متى آمنت بهذا الرأى؟!

فقال رامون حتب مداعبا :

- حين وقعت عينك على فرعون لأول مرة . . لا تفرطى فى العجب فالجمال مقنع كالحق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :

- أدرن الكئوس أيتها الجوارى . . وهلمى أيتها الغانية رادوييس أسمعينا لحنا شجيا ، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشيق ، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر مريوط ، وهياها العيد للفرح والمسرة ، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون .

فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن التفاتة لاحت منها إلى التاجر عانن ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا

بعيدا عن الجماعات فتذكرت أنها أطالت المكث في حلقة آنى،  
فانسحبت من بينهم وسارت إلى التاجر، وصرخت فى وجهه:  
«اصح» فانتبه الرجل فزعا، ولكن سرعان ما أشرق وجهه  
لرؤيتها، فجلست إلى جانبه وسألته:

- أكنت نائما؟

- بل كنت أحلم.

- آه . . فيمن؟

- فى لىالى بيجة السعيدة، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل  
أفوز اليوم بإحدى هاتيك الليالى الخالدات؟! أيمكن أن أظفر الآن  
ببجرد وعد!

فهزت رأسها أن لا، فجزع، وسألها بخوف وإشفاق:

- له؟

- قد تطلبك نفسى، وقد تطلب غيرك، فلم أقيدها بوعد  
خائن؟!!

وتركته إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث  
والشراب، فرحبوا بها فيما يشبه الصياح، وأحاطوا بها من كل  
جانب، وقال واحد منهم يدعى شامة:

- ألا تشترين معنا فى الحديث؟

- وفيم تتحدثون؟

- يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلاً للتكريم الذى يحبوهم به الفراعنة والوزراء .

- وهل أجمعتم على رأى؟

- نعم يا مولاتى . على أنهم لا يستحقون شيئاً .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالي شيئاً، فنظرت رادوييس إلى حيث يجلس الفنانون: رامون حتب، وهنفر، وهنى، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين:

- ينبغي أن يكون هذا الحديث عاماً، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم؟ . . يقال هنا إن الفن عرض تافه، وإن الفنانين غير أهل للتكريم . . فما رأيكم؟!

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التى تستهين بهم نظرة متعالية، وابتسم هنفر ابتسامة هزء، أما رامون حتب فاصفرَّ وجهه غضباً؛ لأنه كان شديد التأثر، وكان شامة متعجباً بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلاً:

- إنى رجل عمل وجد، أضرب الأرض بيد من حديد، فتذل وتبذل لى خيراتها من الأنعم السابغة، فأفيد ويفيد معى الآلاف من المحتاجين، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق . .

وأدلى كل من الرجال بدلوه، إما للتنفيس عن حقد طال

حفظه، أو لمجرد الشرثرة والإعلان عن النفس، فقال أحد الكبار  
يدعى رام:

- من الذى يحكم ويسوس الناس؟ . . من الذى يفتح البلدان  
ويغزو المعازل؟ . . من الذى يجلب الثروة والخيرات؟ . . أناس  
غير الفنانين بلا ريب . .

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر:

- إن الرجال يهيمون بحب النساء، ويهدون بذكرهن فى  
خلواتهن، أما الشعراء فيبسطون هذيانهم فى كلام موزون، وإلى  
هنا لا يجد العاقل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما  
لا طائل تحته، ولكن السخافة والحمافة أن يطلبوا الهذيانهم ثمنا من  
المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى:

- ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما، ويهيمون فى وديان  
بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام، يزعمون أنهم رسل وحى  
كريم . . والأطفال تكذب كذبهم، وكثير من العامة، ولكنهم  
لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوييس طويلا، وانتقلت من مجلسها إلى قريب  
من هنفر، وقالت هازئة:

- ويحك أيها الرجل . . لماذا إذن تسير مختالا فخورا كأنك  
بلغت الجبال طولا؟

فابتسم المثل ابتسامة صفراء، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه  
تعاليا منهم عن الرد على «المتهجمين بغير علم»، وإن انطوى كل  
منهم على غضب شديد، وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند  
ذاك، فالتفتت إلى الفيلسوف هوف. ووجهت إليه هذا السؤال:

- وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين؟

- الفن لهو ولعب، والفنانون لاعبون مهرة.

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم، فلم يملك الحاكم أنى  
نفسه من الضحك. وتصايح التجار والملاك فرحين.

وصاح رامون حتب بغضب:

- أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدا خالصا؟

فهزَّ الشيخ رأسه فى هدوء، وقال والابتسامة لا تفارق شفثيه:

- كلا، ما إلى هذا قصدت، فاللعب ضرورة، ولكن ينبغى أن  
تذكر أنه لعب.

فسأله هنفر بتحد:

- هل الإبداع الملهم لعب؟

فقال الفيلسوف باستهانة:

- أنت تسميه الإلهام والإبداع، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال.

ونظرت رادوبيس إلى المعمار هنى تحته على خوض المعركة،  
وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعى. ولكن الرجل لم يلب

إغراءها، لا استهانة منه بالموضوع الذى يثير النقاش، ولكن اعتقاداً منه - إن حقاً كان أو وهماً - أن هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفرد ورامون حتب - على الأخص - بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب، ونسى أنه فى قصر بيجة، وسأل الفيلسوف بلهجة حاقدة :

- إذا كان الفن لعب خيال، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به؟

- لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق، واللياذ بعالم الطفولة والخيال!

فهزَّ الشاعر كتفيه استهانة، وقال :

- إن هذا الكلام لا يستحق الرد عليه . .

وأمن على قوله هنفرد، وابتسم هنى موافقا، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرا، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظره فى الوجوه الساخرة، وقال بحدة :

- أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا؟

فقال له عانن، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :

- ما أنفه هذا!

فاحتد الشاعر، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :

- ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى . أيجوز أن  
أذكر اللذة والجمال ، فيقال لى إنها شىء تافه . . وهل توجد غاية  
فى الدنيا وراء الجمال واللذة؟!!

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه  
ناحية أذن الغانية ، وقال :

- صدق وحق جمالك يا رادوييس ، إن الحياة تمضى كحلـم  
سريع الزوال ، فأنا أذكر مثلاً أنى حزنت لموت أبى حزننا بالغاً  
وبكيتته مر البكاء ، ولكنى الآن إذا عاودتنى ذكره أسائل نفسى :  
أحقاً عاش ذلك الإنسان على الأرض؟ أم أنه وهم خادع يتراءى  
لى فى غبش الظلام؟! . هكذا الحياة . فماذا أفاد الأقوياء بما  
أحدثوا فيها من قوة؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال وثناء؟  
وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا ، وما ساسوا؟! هباء فى  
هباء . . قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ، والثروة غرورا .  
أما اللذة فهى لذة ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك . فكل ما خلا  
الجمال باطل!

فبدا الجد على وجه رادوييس الفاتن ، وقالت له وقد لاحت فى  
عينها الأحلام :

- ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل  
أيضاً؟ ألا ترانى أمضى العمر فى دعة وانتهاج لذة ، وتملى الحسن  
والجمال؟ ومع هذا فكم يطاردنى الملل والسأم!

ووجدت رادوييس أن رامون حتب فى حالة سيئة ، وطالعت

الاستياء فى وجه هنفر ، وصمت هنى ، فأشفقت من إيلاهم ،  
وعدت نفسها مسئولة عما أصابهم ، فقالت تغير مجرى الحديث :

- حسبكم أيها السادة . . فمهما قلت فلن تنفكوا تطلبون الفن  
والفنانين ، كم تحبون يا هؤلاء الخصام . إنكم لتجعلون السعادة  
نفسها موضوعا للجدل والخصام! . .

ضاق الحاكم أنى بالحديث ذرعا ، فقال لها بتوسل :

- اطردي الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .

وكان الجميع يتوقون للسمع والطرب ، فضموا توسلاتهم إلى  
الحاكم ، ووافقت رادوييس ، وكانت شبعت من الكلام ، واستولى  
عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها ، وظنت أن الغناء أو  
الرقص يزيله ، فقامت إلى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن  
بالدفوف والقيثارة والنأى والونج والصفارة ووقفن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل  
والنقر الرشيق ، يهيئن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى  
والطرب . ثم مضت أنغام آلاتهن تخفت حتى صارت كهمس  
العاشقين الذاهلين ، أنشأت رادوييس تغنى قصيدة رامون حتب :

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء ، أعيرونى أذانكم  
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم

الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم  
وقد شبعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم ، فأين  
الفراعنة؟ أين الساسة؟ أين الغزاة؟ هل حقًا

القبر عتبة الخلود؟ ولكن لم يأت من القبر رسول  
يطمئن قلوبنا، فلا يفوتكم طرب، ولا تفوتكم لذة!  
لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ!

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهى حنون، أطلق الأرواح من  
قيود الأجسام، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة، وذهلت  
عن متاعب الأرض وهموم الدنيا. وشاركت فى التجلى الأعلى،  
وظل القوم بعد إمساكها نشاوى يتنهدون فرحا وحزنا ولذة  
وألما. . . وطرده الحب من صدورهم كل عاطفة إلاه، فاستبقوا إلى  
الشراب، وهدفوا بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين،  
وتداعبهم، وتماجنهم، وتشاربهم، ولما دنت من أنى همس فى  
أذنها:

- أسعدتك الأرباب يا رادوبيس . . جئتك شبيحا مثقلا  
بالتبعات، وإخال نفسى الآن طيرا يحلق فى السماء . .  
فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب، وأهدته زهرة  
لوتس عوضا عما فقد، فقال لها:

- يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال، ألا سحقا لرأيه . . إنه  
ومضة إلهية تشع من عينيك، وتدور مع وجيب قلبى، ثم تأتى  
بالأعاجيب . .

فقال له ضاحكة:

- أخرج منى شىء يأتى بالأعاجيب، وأنا أعجز من الرضيع؟  
ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف، وجلست إلى جانبه، ولم

يكن ذاق خمرا، فحدجته بنظرة فاتنة، فضحك الرجل، وقال  
متهكما:

- ياسوء ما اخترت جليسا!

- ألا تحبني كهؤلاء؟

- ليتنى أستطيع . . ولكنى أجد فيك ما يجده المقررور في  
المدفأة .

- إذن انصحنى ماذا أصنع بحياتى لأنى اليوم أشكو؟

- أتشكين حقًا . . أنعيم و ثراء وشكوى؟

- كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم؟

- الجميع يشكو يا رادوييس، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء  
والبائسين الذين يتلهفون على كسرة خبز، وطالما استمعت إلى  
شكاة السادة وهم يئنون تحت عبء التبعات الجسام، وطالما  
استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة  
والسعادة. فالجميع يشكو، وما من فائدة ترجى من التغيير،  
فاقنعى بما قسم لك .

- وهل يشكو الناس فى عالم أوزوريس؟

فابتسم الشيخ وقال:

- آه . . إن صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير . أما  
الكهنة العالمون فيقولون إنه عالم الأبدية، فصبرا أيتها الحسنة،  
إنك ما زلت قليلة التجارب .

فعاودتها موجة المجون والسخرية، وأرادت أن تداعب  
الفيلسوف، فقالت بلهجة جدية متصنعة:

- أحقًا أنى قليلة التجارب . . إنك لم تر مما رأيت شيئًا؟

- وماذا رأيت مما لم أر؟

فأشارت بيناتها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة:

- رأيت هؤلاء الرجال المبرزين، وصفوة مصر سيدة الدنيا،  
يسجدون عند قدمى، وقد ردوا إلى الوحشية، ونسوا حكمتهم  
ووقارهم، كأنهم كلاب أو كأنهم قرودة!

ثم ضحكت ضحكة رقيقة، وجرت فى خفة الغزلان إلى وسط  
البهو، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار، ورقصت  
الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التى يبدع فيها جسمها اللدن،  
ويأتى بالمعجزة من الخفة والتثنى، وغلب الطرب القوم على  
أنفسهم، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف، واتقدت فى الأعين أنوار  
خاطفة، وختمت رقصتها، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها،  
وجالت بعينها فى أوجه القوم الجشعة، فرأت ما أضحكها قهرا،  
وقالت:

- لكأنى بين الذئاب .

وأعجب عانن الثمل بالتشبيه، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة  
الجميلة، وحققت له الخمر ما تمنى، وظن نفسه ذئبا حقًا، فعوى  
بصوت عال ضج له السادة ضحكا، ولكنه تابى على العواء،  
وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم

العاصف، حتى صار منها على قيد شبر، ثم قال لها:

- اجعلي هذه الليلة من نصيبي . .

ولكنها لم ترد عليه، والتفتت إلى الحاكم أنى، وقد جاء يحييها تحية الوداع، فأعطته يدها، ثم تلاه الفيلسوف هوف، وقد سألتها ضاحكة:

- ألا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك؟

فهز رأسه ضاحكا وقال:

- أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم قفط!

ورجا كل أن تكون الليلة له، وألحف فى الرجاء، وتنافسوا فى ذلك تنافسا شديدا حتى خرج الأمر. وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال:

- ليكتب كل منكم اسمه فى ورقة، ولنضع الأسماء جميعا فى صندوق عانن العاجى، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ . .

واضطر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم، إلا عانن خشى أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع:

- مولاتى . . أنا رجل سفر، اليوم بين يديك، وغدا فى بلد بعيد لا أبلغه إلا بشق الأنفس، وإن فاتتنى الليلة فقد أخسرها إلى الأبد . .

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم، وردوا عليه هازئين. وكانت

رادوييس صامته . . تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها  
القلق الغريب ، فأحست برغبة فى الفرار والانفراد . وضجرت من  
الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف ،  
فقالت :

- لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة ، فلن أكون الليلة لإنسان !

وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين ، لا يصدقون أذانهم ،  
ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى . فوجدت  
ألا فائدة ترجى من توجيه الكلام إليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا  
على وجهها التصميم والعزم وقالت :

- إنى تعب . . دعونى أستريح ! . .

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان  
على عجل . .

وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها  
تلك الليلة ، ولا تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة . .  
وشخصت إلى النافذة رأساً وأزاحت عنها الستارة ، ونظرت إلى  
الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل  
النشاوى البائين بالحسرة والخذلان ، فلذ لها منظرهم وارتسمت  
على شفيتها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت؟ . . لا تدري ! ولكنها تشعر باضطراب  
وقلق . .

واها . . ماذا وراء هذه الحياة الراتبة؟ . لقد حارها الجواب ،

ولم يرو غلتها الحكيم هوف نفسه ، ثم استلقت على سريرها  
الوثير ، واستسلمت للأحلام ، فمرت بصفحة خيالها حوادث  
اليوم العجيبة واحدة فى إثر الأخرى : فرأت جموع المصريين  
المحتشدة . . ورأت عيني الساحرة المتقدتين اللتين جذبتها إليها  
بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث الرعدة فى  
المفاصل . . ثم شاهدت فرعون الشاب فى هالة المجد والجمال ،  
ثم ذلك النسر الهصور الذى انقض على فردة صندلها وطار بها  
إلى السماء . حقا كان يوما حافلا . ولعل هذا أيقظ عواطفها ،  
وشرد خيالها ، ووزع نفسها أشتاتاً ، مما ذهب ضحية له العشاق  
البائسون ، إن قلبها يخفق خفقاناً شديداً ، ونفسها تضطرم بلهيب  
غامض ، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة . وكأنها تود أن تنتقل  
من حال إلى حال ، ولكن أى حال هذه؟! إنها حيرى لا تدرى  
شيئاً ، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة  
الملعونة؟!!

إن ما بها لسحرا مبينا ، فإن لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر  
الأقدار المسيطرة على المصائر .